الفصل الثالث

تراجم صوفية

١

المتصوفة يصفون سلوكهم وتجاربهم

رافقت الإسلام منذ نشأته نزعة زهد ، أخذت تنمو وتتطور وتدخل فيها عناصر أجنبية مختلفة ، انتهت إلى ظهور طبقة المتصوفة ، وهى طبقة تجردت تجرداً كاملا عن الدنيا ومتاعها ونبذت كل طيباتها ومباهجها مؤثرة الفقر والمسغبة والثياب الخشنة كالصوف ونحوه، سامية بأنفسها إلى الكائن الأوحد والملاذ الأعلى ، متعطشة إلى نوره الذى يفيضه على الوجود ، متشوقة إلى الاتحاد به والفناء فيه .

وقد أخذوا يضعون لهم منذ أوائل العصر العباسى طقوساً وعادات ، يسمونها أحوالا ومقامات ، يحاولون بها التخلص من كيانهم المادى وحُجب أجسادهم الكثيفة ، حتى يتهيأوا لانكشاف الحقيقة المتوحدة لهم ، وحتى تغمرهم أنوارها ، وتشرق عليهم أضواؤها الأزلية ، بل حتى يفنوا فيها فناء مطلقاً .

وهو فناء ترافقه المحبة وما يسمى بالعشق الإلهى ، وهى محبة من نوع سام ، تتعطل فيها كل الإرادات والضرورات المادية ، إذ يذوب المحب فى المحبوب ، ولا يكون له وجود إلا فيه . ويتخيلون لذة المحبة كأساً ، لا يشرب منها الصوفى وتحتويه حتى يغيب عن وجوده الظاهر ، وينتشى بفنائه فى وجود باطن مع الكائن الإلهى الأعظم .

ولسنا بصدد البحث فى التصوف ولا فى نظريات المتصوفة وما يتفق منها مع روح الإسلام وما لا يتفق ، إنما تهمنا تراجمهم الشخصية ، وما خلفوا منها للأجيال التى تلتهم . ومعروف أن لهم كتباً مختلفة عنيت بالترجمة للبارزين منهم على مرّ العصور .

ومن أهم ما يميز هذه التراجم أنها تصور لنا سلوكهم وتضع تحت أعيننا كثيراً من تجاربهم التى تعد فى جوانب منها غريبة وخاصة حين يتحدثون عن كراماتهم ومكاشفاتهم وما عرض لهم من الأحـــوال . وكثير مما يروى عنهم فى يقظتهم يشبه الرؤى والأحلام ، ومن غير شك يتيح ذلك ميداناً فسيحاً لعلم النفس الحديث وأبحاثه ودراساته . وفى الوقت نفسه تتحول تراجمهم إلى تراجم شخصية فى أكثر جوانبها ، لأن من كتبوها قصروها ، أوكادوا ، على كلامهم فى التصوف وما ينصحون به فى معرفة الطريق ، وقد يعرضون بعض تجاربهم الحقيقية . وهم فى ذلك إنما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرتهم ، وقد يعرضونها شعراً ، وقد يعرضونها نثراً أشبه ما يكون بالشعر ، ففيه الإبهام والغموض ، وفيه هذا التطلع الحالم إلى أشعة الذات العلية .

ولعل ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محببة إلى النفس . لأننا نجد فيها تجارب تأخذ بألبابنا ، ومجاهدات تشبه مجاهدات الفراش حين يحوم على النار ، يريد أن يسقط فيها . وهى مجاهدات وتجارب بدأت منذ رابعة العدوية ومعاصرها إبراهيم بن أدهم ، وإليها تنسب هذه الأبيات فى العشق الإلهى :

أحبك حُبَّين حُبُّ الهوى ... وحبٌّ لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذى هو حبُّ الهوى ... فشغلى بذكرك عمّن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ لـــه ... فكشفك لى الحُجْبَ حتى أراكا

وكان إبراهيم بن أدهم أميراً من أمراء بَلْخ ، فخرج يوماً للصيد . فأثار ثعلباً أو أرنباً . فسمع هاتفاً يهتف به : يا إبراهيم ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم

هتف به : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته ، وصادف راعياً ، فأخذ ثوبه وكان من صوف . وأعطاه ثوبه وفرسه وما معه ، وساح فى الأرض تائباً مستغفراً مؤثراً ما عند ربه . ويقال إن حرّس قصره سمعوا ليلة جلبة فوق سطحه ، وذهبوا لتبين الأمر ، فوجدوا قوماً يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة . فاقتادوهم إلى إبراهيم ولما سألهم هل حدث أن بحث شخص عن إبله المفقودة فوق أحد السطوح؟ أجابوا إننا نقتدى بك لأنك تبحث عن ربك وأنت جالس على كرسى إمارتك . فخلع ثوب الإمارة ورمى به بعيداً وفرّ عن القصر ودخل البادية وظل سائحاً حتى وصل إلى مكة ودخل الشام ومات بها سنة ١٦١هـ/ ٧٧٧ م . وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين. ويقولون إنه كان يحفظ كَرْماً فمر به جندى ، فقال : أعطنى من هذا العنب، فقال : ما أمرنى بذلك صاحبه ، فأخذ يضربه بسوطه . فطأطأ له رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله ، فأعجز الجندى ومضى . ومما يروونه عن سلوكه وسيرته أنه كان يقول : لا ينال شخص درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات ، أولاها يغلق باب النعمة ، ويفتح باب الشدة ، والثانية يغلق باب العز ويفتح باب الذل ، والثالثة يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد والرابعة يغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، والخامسة يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، والسادسة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت . وهى أبواب اجتازها هو نفسه ليتخلص من متاع الدنيا ، ويحصل على رضوان ربه ، ويصبح من أهل المعرفة المتصوفة الأصفياء .

وتتناقل كتب المتصوفة أقوالاً كثيرة فى التصوف وأحواله ومقاماته لأبى سليمان الدارانى المتوفى سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م من مثل قوله : « إن الله تعالى قد يكشف للعارف وهو نائم فى فراشه من السر ويفيض عليه من النور ما لا يكشفه للقائم فى صلاته . وإذا استيقظت فى العارف عين قلبه نامت عين جسده، لأن العارف لا يرى سوى الحق » ويروى بعض المتصوفة أنه دخل عليه وهو يبكى

فقال له ما يبكيك ؟ فقال : ولمَ لا أبكى ، وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم وتقطرت فى محاريبهم أشرفَ الجليل سبحانه وتعالى فنادى يا جبريل ! بعينى من تلذذ بكلامى واستراح إلى ذكرى . وإنى لمطلع عليهم فى خلوتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادى فيهم يا جبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بى أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا لى ، فبى حلفت إنهم إذا وردوا على القيامة لأكشفن لهم عن وجهى الكريم، حتى ينظروا إلىّ وأنظر إليهم .

وفكرة الحب الإلهى التى تعلق بها المتصوفة واضحة تمام الوضوح فى هذا النص ، وقد ترك الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م كثيراً من النصائح التى إذا اتبعها السالك وصل إلى هذا الحب ، وذكر فى نصائحه أنه كان يسير أولا فى طريق شائك. ثم اهتدى إلى طريق المتصوفة الصالحين ، وكان يقول : « إن أولى المحبة الطاعة . وهى منتزعة من حب السيد عز وجل ، إذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك أنه عرَّفهم نفسه ودلهم على طاعته وتحبب إليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع فى قلوب محبيه ، ثم ألبسهم النور الساطع فى ألفاظهم من شدة نور محبته فى قلوبهم . . والحب لله هو الحب المحكم الرصين وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله. وشدة الأنس بالله وقطع كل شاغل شغَل عن الله . . والحب إذا ثبت فى قلب عبد لم يكن فيه فضل لذكر إنس ولا جان ولا جنة ولا نار ولا شىء إلا ذكر الحبيب وذكر أياديه وكرمه . . وذكر ما وعد أولياءه من كشف الحجب لهم وأنهم لا يحزنهم الفزع الأكبر » . وكان ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م يرى أن غاية الحياة الصوفية الوصول إلى مقام المعرفة حيث يدرك الصوفى الحقائق بذوقه لا بعقله ، وكان يقول من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه ، وقد سئل عن سبب توبته وسلوكه طريق المتصوفة فقال : أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى ، فنمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عينى ،

فإذا أنا بقبَّرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سُكُرُّجتَان إحداهما ذهب والأخرى فضة ، وفى إحداهما سمسم وفى الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت حسبى قد تُبْتُ ، ولزمت الباب إلى أن قبلنى الله عز وجل . ويحكى عن السرىّ السَّقَطى المتوفى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أكل الخبز بالقديد (اللحم المقدد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه أن لا يتناول أبداً شيئاً من الإدام . وقال تلميذه وابن أخته الجنيد : « دخلت يوماً عليه وهو يبكى ، فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : جاءتنى البارحة الصبية فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلّقه ههنا ، ثم إنه حملتنى عيناى ، فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فى الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض ، فكسرته » .

ومن أكبر من طوروا التصوف وفتحوا أبواباً فيه يجتازها من يريد الوصول إلى ربه أبو يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هـ/٨٧٤م فقد أشاع الحديث عن الفناء فى الذات العلية بحيث يحصر المتصوف نفسه فى التأمل فى ربه ، ولا يخطر بفكره أى شىء سواه ، بل حتى يعطل حياته العقلية الشاعرة عن إدراك فنائه فى ربه . وقد سئل كيف وصلت وحصلت هذه الدرجة من التصوف فقال : خرجت ذات ليلة من بسطام وكنت صبيًّا ، وقد أضاء القمر وسكن كل شىء ، فرأيت حضرةً كانت العوالم الثمانية عشرة ألفاً إلى جانبها كالذرة ، فاضطربت واعترتنى دهشة عظيمة ، وصحتُ يا رب ! ساحة خالية مع هذا العظم وملكٌ موحش مع هذا الجلال ، وإذا بهاتف من السماء يقول : ليس خلو الساحة من انعدام اللاجئين ، بل لأننا غير ذلك شئنا ، فإنه ليس كل من عَفَّر وجهه أهلا للدخول فى هذه الساحة » . وقال : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح

منى فىّ : يا من أنت أنا ، فتحققت بمقام الفناء فى الله » . وقال : « كنت اثنى عشر عاماً حداد نفسى ، ألقيت بها فى كور الرياضة وأحرقتها بنار المجاهدة ، ووضعتها على سندان المذمة ، وطرقتها بمطرقة الملامة ، حتى جعلت منها مرآة . وكنت خمس سنين مرآة نفسى أصقلها دائماً بأنواع من العبادة والتقوى ، وسنة أنظر فيها بعين الاعتبار ، وقد نظرت فإذا فى وسطى زُنّار من الكبر والعجب والرياء والاعتماد على الطاعات والنظر بعين الارتياح إلى الأعمال . فعملت خمس سنين حتى انقطع ذلك الزنار واعتنقت الإسلام من جديد . ونظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى ، فكبرت عليهم أربع تكبيرات ، ورجعت من جنازتهم جميعاً ، ووصلت إلى الله بعون الله وحده من غير وساطة من الخلق » . وفى مثل هذا المعنى قال : « منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتى ، فصرت اليوم مرآة نفسى ، لأننى لست الآن مَنْ كُنْتُه . وفى قولى "أنا" و"الحق" إنكار لتوحيد الحق لأننى عدم محض ، فالحق تعالى مرآة نفسه . بل انظر إن الحق مرآة نفسى لأنه هو الذى يتكلم بلسانى ، أما أنا فقد فنيت » . وتنسب إليه أقوال تدل على أنه كان ينزع إلى فكرة وحدة الوجود من مثل قوله : « خرجت من بايزيديتى كما تخرج الحية من جلدها . ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » .

وخطا الحلاّج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ / ١٩٢١ م مقتولا بفكرة وحدة الوجود خطوات وكتابه « الطواسين » تصوير لأحواله ومقاماته الصوفية ، وهو ملىء بالرموز الغامضة ، وكثير من عباراته يشبه الطلاسم ، فهى تستعصى على الحل والفهم ، وإن قوله الذى شاع عنه : « أنا الحق » يلخص نظريته ، إذ يريد بالحق الذات العلية ، وشرح نظريته فى ذلك فقال :

« تجلى الحق لنفسه فى الأزل قبل أن يخلق الخلق ، وقبل أن يُعلم الخلق ، وجرى له فى حضرة أحَدِيَّتِه مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف ، وشاهد سبحات ذاته فى ذاته . وفى الأزل — حيث كان الحق ولا شىء معه — نظر إلى

ذاته فأحبّها وأثنى على نفسه ، فكان هذا تجليًّا لذاته فى ذاته فى صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حدّ . وكانت هذه المحبة علة الوجود والسببَ فى الكثرة الوجودية . ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتى ماثلا فى صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها ، فنظر فى الأزل ، وأخرج من العدَم صورة من نفسه ، لها كل صفاته وأسمائه ، وهى آدم الذى جعله الله صورته أبد الدهر . ولما خلق الله آدم على هذا النحو عَظَّمه ومَجَّده واختاره لنفسه ، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو » . ونراه يمثل الوصول إلى الحقيقة على هذا النحو : « الخواطر علائق ، وعلائق الخوالق لا تصل إلى الحقائق ، والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة . الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ، الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بألطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعاً فى الوصول إلى الكمال . صورة المصباح علْم الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة . لم يرض بضوئه وحرارته . فيلقى جملته فيه ، والأشكال ينتظرون قدومه ، فيحذرهم عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشياً متصاغراً متطايراً ، فيبقى بلا رسم وجسم ، واسم ووسم ، فلأى معنى يعود إلى الأشكال وبأى حال بعد ما حاز . صار من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر » . وكان يرى أن « من هذب فى الطاعة نفسه واشتغل بالأعمال الصالحة قلبه وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه فى متع الشهوات ارتقى بها إلى مقام المقربين ، ثم لا يزال يتنزّل فى درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حلّ فيه روح الله . . فيصير مطاعاً ، فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وإن جميع فعله حينئذ فعل الله وجميع أمره أمر الله » . ومن شعره قوله :

أنا من أهْوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حَلَلْنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرتَـه ... وإذا أبصرتَـه أبصرتنـا

وقوله :

مُزِجَتْ روحك فى روحى كما تُمْزَجُ الخمرة بالماء الزلال
فإذا مَسَّك شىء مسَّنى فإذا أنت أنا فى كل حال

وعُدَّت هذه الآراء وما يماثلها خروجاً على الإسلام وتعاليمه فأفتى فقهاء عصره بقتله، وحُبِسَ طويلا. ثم قتل. ومن الآراء الغريبة التى نسبت إليه اتخاذه إبليس مثلا للمتصوفة ، لأنه لم يرض أن يسجد لآدم ، حتى لا يسجد لغير ربه ! ويظهر أنه مزج تصوفه بشعوذة غير قليلة .

ولسنا نستطيع المضى فى هذه السير الصوفية التى تقصها كتب الطبقات لأنها باب يطول ، ويخرج بنا عن غايتنا من هذا الكتيب الذى جعلناه للترجمة الشخصية يكتبها صاحبها قاصداً ، وأكثر ما قدمناه إنما هو فى وصف المتصوفة لسلوكهم وطريق تخلصهم إلى غايتهم ، وقلما نجد عندهم اعترافات مثل هذا الاعتراف الذى يذكره الحجويرى فى «كشف المحجوب» وهو من متصوفة القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) إذ يقول إن الله صانه من آفة الزواج أحد عشر عاماً ، ثم وقع فى فتنة لمدة عام ، إذ أصبح أسيراً لتلك التى لم يرها ، وبقى على ذلك عاماً ، حتى كاد أن يهلك ، وأخيراً منّ الله عليه بلطفه فعصم قلبه الضعيف ، وخلصه من محنته .

ولم نتعرض لكرامات المتصوفة ، وهى الأخرى تعد من تجاربهم ، إذ كانت تعتقد العامة فيهم أنهم يأتون ببعض الخوارق، وهى تقابل عندهم معجزات الأنبياء . وتقصّ كتبهم أطرافاً من ذلك كلها عجائب وغرائب ، كأن يطير أحدهم فى الهواء أو يمشى على الماء . وقد يكون ذلك ضرباً من التخييل .

وشاع عند غير واحد منهم القول بإسقاط الشرائع وتعطيل العبادات ، اكتفاء بالوصل وانكشاف الحقيقة ، وانبرى منهم كثيرون يردون على هذا الاعتقاد الفاسد كما انبرى لهم كثير من الفقهاء يسفهون آراءهم وما «رسالة القشيرى» المشهورة

إلا رد على أصحاب هذا الزعم بما تروى من سيَر فضلائهم ،الذين كانوا يرون القيام بالفروض الدينية باب الوصول الحقيقى .

ولا نصل إلى القرن الخامس الهجرى حتى يقوم شقاق واسع بين الفقهاء من أصحاب الشريعة والمتصوفة من أصحاب الحقيقة . ولا يلبث الغزالى أن يظهر ، فيطهّر التصوف من الأدران التى علقت به من مثل الحلول والإيمان بوحدة الوجود ، وتعطيل فروض الشريعة . وبذلك يرفع الحواجز التى أقامها الطرفان المتعاندان من الفقهاء والمتصوفة . ولم يصل إلى هذه الغاية إلا بعد رحلة عقلية شاقة قصها علينا فى كتابه « المنقذ من الضلال » . وربما كان أطرف التراجم الشخصية التى خلفتها لنا العصور الوسطى ؛ ومن أجل ذلك نخصه هو وصاحبه بكلمة .

٢

الغزالى

يعد الغزالى أكبر عقلية خدمت الشريعة والتصوف فى وقت معاً ، فقد وقف حياته على التوفيق بين هذين الاتجاهين ، ولد فى طوس من أعمال خراسان سنة ٤٥٠ هـ — ١٠٥٨ م ، ولم يلبث والده أن توفى بعد أن عهد بتربيته إلى صديق له صوفى .

واتجه الغزالى إلى دراسة الفقه وعلم الكلام ، ورحل فى سبيلهما إلى نيسابور ؛ فتتلمذ على إمام الحرمين العالم الشافعى المتكلم المشهور ، وأخذ منذ تتلمذه على هذا الشيخ يضيق بجدل الفقهاء وكثرة تفاريعهم . كما أخذ يضيق بدقائق الكلاميين ، وتحول ذلك فى نفسه إلى شك فى حقيقة هذين العلمين ، وأيضاً أخذ يشك فى آراء الفلاسفة . وحدث أن قدم على مجلس نظام الملك وزير السلطان

السلجوقى فأعجب به ، وعهد إليه أن يقوم بتدريس الفقه وعلم الكلام فى مدرسته المشهورة باسم المدرسة النظامية ، وكانت أكبر جامعة إسلامية فى هذا الحين ، وظل يقوم بهذا التدريس من سنة ٤٨٤ هـ إلى سنة ٤٨٨ هـ وفى هذه الأثناء ألف فى الفلسفة كتاباً دلّ فيه على أنه أحسن الإلمام بأصولها ومسائلها عند ابن سينا والفارابى وغيرهما من متفلسفة المسلمين . ولم يكن يقصد بكتابه إلى دراسة الفلسفة من حيث هى ، وإنما أراد أن يصور مسائلها تصويراً دقيقاً حتى يهدمها فى كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » . وتحول يشك فى الفقه والكلام اللذين يدرسهما ، ويرى أنهما قاصران عن بث الطمأنينة فى قلب المسلم ، إذ لا يستطيع عن طريقهما تذوق الحقيقة العليا ، حقيقة الذات الإلهية .

وفجأة ينقطع عن التدريس فى المدرسة النظامية ، ويصرخ فيه هاتف باطنى يدعوه أن ينصرف عن الدنيا ومطامعها ، ويمرض ، ويشفى من مرضه وقد عزم على الرياضة والمجاهدة والخلوة والعزلة عن الناس ، ويرحل عن بغداد ويسيح فى الأرض متنقلا بين معابد وصوامع الحجاز والشام ومصر . وفى أثناء ذلك يؤلف كتبه وقد تحول ناسكاً عابداً ، وفى الوقت نفسه مصلحاً دينيًّا ، يؤمن بأن الدين تذوق باطنى ، وليس مجرد أحكام تعلّل وإنما هو كما يقول المتصوفة شىء تشعر به الروح وتتذوقه . وعن طريق هذا الشعور والتذوق يصل المسلم إلى المعرفة اليقينية التى ينشدها . وهو يطهّر هذه المعرفة ، فليس فيها إيمان بحلول كما يغلو بعض المتصوفة ، وليس فيها إبطال ولا إنكار لأحكام الشريعة ، بل التصوف الحق هو الذى يصل بين هذه الأحكام والقلب . وبهذه الروح عالج الأحكام والسنن الشرعية فى كتابه المشهور « إحياء علوم الدين » وكتبه الأخرى التى ذاعت فى العالم الإسلامى وعُدّ بها « حجة الإسلام وزين الدين » . وعاد فى أواخر أيامه إلى وطنه واشتغل بالتدريس فى نيسابور ، وكتب كتابه « المنقذ من الضلال » يصف رحلته العقلية ، وكيف وصل أخيراً إلى الحق ، ولم يلبث أن توفى بطوس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م .

والغزالى يفتتح كتابه بأن بعض إخوانه سأله أن يشرح كيف ارتفع عن حضيض التقليد إلى قمم الاستبصار وتحصيل العلم اليقينى ، ويقول إن « اختلاف الخلق فى الأديان والملل ثم اختلاف الأئمة فى المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بحر عميق ، غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجى وكل حزب بما لديهم فرحون » . ويذكر أنه منذ شبابه إلى أن أناف على الخمسين يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض أغواره وأعماقه خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، ودعاه ذلك إلى أن يتوغل فى الاطلاع على كل مذهب عند أهل السنة وعند الباطنية وعند الفلاسفة والمتكلمين وعند الصوفية المتعبدين ، بل أيضاً عند الزنادقة والملحدين . ويقول إنه طُبع منذ الشباب على ترك التقليد ، ومحاولة معرفة الطريق إلى العلم اليقينى الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب . واجتاحته فى أول أمره لذلك موجة من الشك ، أنقذه الله منها ، يقول :

«أعضل هذا الداء "داء الشك" ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة " الشك " بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفا الله تعالى ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال . ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن كل ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيَّق رحمة الله الواسعة » .

ولما شفاه الله من هذا المرض انحصرت أمام عينه فرق طالبى الحق فى أربعة أصناف هم (١) المتكلمون (٢) والباطنيون من الشيعة (٣) والفلاسفة أهل المنطق والبرهان (٤) والصوفية أهل المشاهدة والمكاشفة . وأخذ يسلك طرق هذه الفرق ، ينشد الحق مبتدئاً بعلم الكلام ، حتى إذا لم يجد فيه طلبته انتقل إلى الفلسفة ، فافتقد بغيته ، فتحول إلى تعاليم الباطنية ، فلم يجد فيها أمنيته ، وانتهى أخيراً إلى التصوف . فوجد فيه النور الذى كان ينشده .

ويصف لنا أولا رحلته فى علم الكلام ، وكيف تعمق فى دراسة مباحثه وأهم كتبه ، بل لقد ألف فيه . ويصور لنا غايته وهى حفظ العقيدة الإسلامية وحراستها من تشويش أهل البدع ، وهى غاية نبيلة . إلا أن الغزالى لم يلبث أن لاحظ قصور أدلة المتكلمين لاعتمادها على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى التسليم بها التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع فى جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلا». فلم يكن الكلام له كافياً ؛ ولا لدائه الذى يشكوه شافياً .

ومعنى ذلك أنه عد أدلة الكلاميين إسرافاً عقلياً لا غناء فيه ، لسبب بسيط وهو أنه لا يتفق مع بساطة الفكر الدينى . وتحول إلى الفلسفة لعله يجد فيها ما يشفيه من مرضه . وبدأ فدرسها دراسة دقيقة . وكان فى أثناء ذلك يلقى محاضراته على ثلاثمائة طالب بالمدرسة النظامية . فلم يصرفه هـذا العمل عن تحصيلها ؛ بل لقد واصل النظر فيها ، حتى عرف فرقها واختلاف مذاهبها وطوائفها ، وقد انتهى إلى أنهم ثلاثة أصناف : صنف دهريون جحدوا الصانع المدبر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه وبلا صانع . وهم الزنادقة . وصنف طبيعيون يكثرون من البحث فى عالم الطبيعة ، وهداهم هذا العالم إلى أن له صانعاً حكيما ، ولكنهم لم يعتقدوا فى شىء وراء ذلك فلم يؤمنوا بالبعث والنشور . وهم أيضاً زنادقة وإن آمنوا بالله وصفاته . وصنف ثالث إلهيّون ردّ على الصنفين الأولين ، ولكنه استبقى من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها . ومن هذا الصنف أرسطاطاليس ومتفلسفة المسلمين كابن سينا والفارابى . ونراه بعد ذلك يتحدث عن علوم المتفلسفة فيقول إنها بالنسبة إلى الشريعة ستة أقسام : (١) رياضيات (حساب وهندسة وعلم هيئة) وهى أمور برهانية لا تجحد معرفتها إلا أنه تولد منها آفتان . أولاهما أن من ينظر فيها يعجب بدقائقها وظهور براهينها ، فيحسن اعتقاده فى الفلاسفة وينسحب هذا الاعتقاد على ما يقولونه فى الإلهيات ، ناسياً

أن كلامهم فى الرياضيات برهانى وفى الإلهيات تخمينى . وثانية الآفتين جاءت من أصدقاء الإسلام الجهال الذين ينكرون الفلسفة حتى رياضياتها ، فشككوا الناس فى الدين إذ ظنوا أنه مبنى على إنكار البراهين القاطعة . (٢) ومنطقيات ، وهى لا يتعلق شىء منها بالدين نفياً وإثباتاً ، وهى تشبه ما ذكره المتكلمون من أدلتهم ، وآفتها آفة الرياضيات . (٣) وطبيعيات ، والدين لا ينكرها إلا فى بعض مسائل سبق أن ذكرها فى كتابه « تهافت الفلاسفة » . (٤) وإلهيات وفيها أكثر أغاليطهم ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها ، ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلا . وكفرهم الغزالى فى ثلاثة منها وهى : أن الأجساد لا تحشر وإنما تحشر الأرواح . والله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات وهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . ثم قولهم بقدم العالم وأزليته . (٥) وسياسيات ترجع إلى الحِكَم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، وهى لا تتعارض مع الدين ؛ بل إنها تستمد منه . (٦) وخلقيات وهى معارف تهذيبية أخذوها عن المتصوفة ومزجوها بكلامهم . ويرى الغزالى أن لمجموع هذه العلوم آفتين : أن من يؤمن ببطلانها قد يردّ ما نقل إليها من الدين وكلام الرسل والأنبياء والمتصوفة وما جاء على ألسنة عُبَّادهم ونسَّاكهم . لأن أطرافاً من كل ذلك مزجوها بكلامهم . والآفة الثانية أنه قد يرى هذه الأقوال التى يؤمن بصحتها عندهم ، فيؤمن جملة بآرائهم وما فيها من باطل . ولذلك دعا الغزالى إلى تمحيص كتبهم بل زجر عن مطالعتها . ونهى عن قراءتها . لما فيها من مزالق ومخاطر .

ويقول الغزالى إنه بعد أن فرغ من علم الفلسفة وتزييفه وعرف أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب انتقل إلى تعاليم الباطنية التى شاعت فى عصره فطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . ودرسها دراسة فاحصة ، وأخذ فى تقرير شبهاتهم إلى أقصى الإمكان . ثم أظهر فسادها بغاية البرهان . وقد وقف عند قولهم بأنه لا بد من معلم معصوم يعلِّم الأمة . وارتضى هذا القول ، ولكن على أن المعلم المعصوم هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، لا الإمام كما تقول الباطنية . وقال إنه لا

يضر هذا المعلم وأمته أن يموت بعد أن أكمل التعليم وبث دعاته فى البلاد . وهو فى ذلك يرد على فكرة الغيبة التى يؤمن بها بعض الشيعة . ووقف أيضاً عند رفضهم للاجتهاد والاقتصار على النص المأثور عن أئمتهم ، وقال إننا نحكم بالنص عند وجوده فإن لم نجده اجتهدنا . وقال إن الاجتهاد ضرورى لسبب بسيط ، وهو أن « النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية . فلا بد من الاجتهاد فى إرجاع الوقائع الخاصة إلى النصوص العامة » . فعلى العاقل أن يجتهد رأيه فيما وراء قواعد العقائد من التفصيل . ويقول إنه ليس الغرض الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك فى كتب أخرى . بل « المقصود أن هؤلاء ليس معهم شىء من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء .. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم .. ولم يتعلموا منه شيئاً أصلا » . وبذلك ينفض يده من الباطنية كما نفضها من الفلاسفة قبلهم والمتكلمين . ولا يبقى أمامه إلا طرق الصوفية . فيسلكها قائلا :

« إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل . وكان حاصل عملهم قطعَ عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصَّل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله . وكان العلم أيسر علىّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل " قوت القلوب " لأبى طالب المكىّ وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشِّبْلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم . حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية . وحصلت ما يمكن أن يحصَّل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لى أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم . بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون " الإنسان " صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حدّ السكر .. وبين أن يكون " الإنسان " سكران . بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعلمه . وهو سكران وما معه من علمه شىء . والصاحى يعرف حدّ السكر وأركانه وما معه من السكر شىء .

والطبيب فى حالة المرض يعرف حدّ الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة . وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقيناً أنهم "الصوفية" أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته . ولم يبق إلا مالاسبيل إليه بالسماع والتعلم . بل بالذوق والسلوك . وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية إيمانٌ يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت رسخت فى نفسى لا بدليل معين محرَّر "متحرِّى" بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها . وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكفّ النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكُنْه الهمة على الله تعالى . وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمسٌ فى العلائق ، وقد أحدقت بى من كل الجوانب . ولاحظت أعمالى — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبلٌ على علوم غير مهمة ولانافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكّرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى . بل باعثها ومحركها طلبُ الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنى على شفا جرُفٍ هارٍ ، وأنى قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافى الأحوال . فلم أزل فى التفكر مدةً وأنا بعدُ على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلّ العزم يوماً ، وأقدّم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جُنْد الشهوة جملة ، فتفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيلَ الرحيل ، فلم يبق من العمر إلاقليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن

هذه العلائق فمتى تقطع ؟ . . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض "وظيفته فى المدرسة النظامية" والشأن المنظوم الخالى عن التكدير والتنغيص والأمن الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة » .

وعلى هذا النحو يصف الغزالى ما ألمَّ به من صراع نفسى عنيف نشأ عن حيرته ، فهل يضحى بجاهه العريض ويرحل عن بغداد أو يظل فى هذا الجاه الذى أكسبه إياه توفيقه فى الدرس والتعليم ؟ . ووقع مدة ستة أشهر فريسة هذين الباعثين القويين . فيوماً يعزم على الخروج ويوما ينثنى عن هذا العزم ، ويوماً يقدم رجلا ويوماً يؤخر أخرى . حتى جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، فلم يعد يمكنه التدريس . بل لم يعد يمكنه النطق بالكلام . وأورثه ذلك حزناً فى القلب بطلت معه قوة الهضم والرغبة فى الأكل والهناءة فى الشراب ، وضعفت قواه ضعفاً تاماً . وسُدَّت أمامه جميع الأبواب ولم يبق أمامه مفتوحاً إلا باب التصوف ، فسلكه راضياً مرضيًّا . يقول :

« ثم لما أحسست بعجزى . وسقط بالكلية اختيارى . التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه وسهّل على قلبى الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب . وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبِّر فى نفسى سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحِيَل فى الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . . ففارقت بغداد وفرّقت ما كان معى من المال ، ولم أدَّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . . ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لى إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية .

فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، وأصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى . ثم تحركت فىّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه . فسرتُ إلى الحجاز . ثم جذبتنى الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، وآثرتُ العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر . . ودمتُ على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها » .

وهنا تنتهى رحلة الغزالى العقلية . فقد تخلص عقله من الأبحاث الملتوية التى تعمقها فى بيئات المتكلمين والمتفلسفة والباطنية ، ووجد خلاصه أخيراً فى بيئة المتصوفة ، حيث يتحول الشعور الدينى إلى تجربة ذاتية قلبية . تُدْرَك بالذوق لا بالعقل ، وقد أخذ يشيد بالتصوف وأصحابه قائلا :

« إنى علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسنُ السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق . بل لو جمع عقلُ العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة . . أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . ومفتاحها . . استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية فى الله . . ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات . . وكرامات الأولياء على التحقيق هى بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد . حتى قالت العرب إن محمداً عشق ربه » .

وواضح من ذلك أنه يربط بين التصوف ونبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تصوفه هو الذى هداه إلى حقيقة النبوة ؛ فالرسول هو منبع الحياة الدينية الروحية ، ومنبع النور الذى يفيض على المتصوفة من أمثال الغزالى . ومعنى هذا أنه عرف حقيقة النبوة عن طريق شعوره الشخصى بأشياء هى من خصائص الرسول والرسالة ، يقول : « ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ». ثم يعقد فصلا خاصًّا لها يبين فيه أنها تدرك بدراسة القرآن والأحاديث وأحوال الرسول كما تدرك بذوق المتصوفة وما يشاهدونه فى أنفسهم من خصائص النبوة .

وشعَر الغزالى شعوراً عميقاً فى نفسه بأنه مصلح دينى وأن عليه أن يمكِّن عقيدة الصوفية فى نفوس الناس ، ولذلك تحركت فى نفسه عوامل الرجوع إلى نشر العلم ، فأخذ فى نشر كتبه وعلى رأسها كتابه « إحياء علوم الدين» . وخرج من عزلته ، ورحل إلى نيسابور ، وأخذ يعلم الناس . ويشتغل بالتدريس ، وفرقٌ بين ما يدرسه الآن وما كان يدرسه سابقاً فى بغداد ، فهو كما يقول إنما يدرس « العلم الذى به يترك الجاه . ويُعرف به سقوطُ رتبة الجاه » مبتغياً أن يصلح نفسه وغيره . ويختم كتابه بقوله : « نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وأرشده إلى الحق وهداه . . »

٣

بعد الغزالى

رأينا الغزالى يترجم لحياته العقلية وتطورها ، حتى انتهى إلى طريق التصوف ، فألقى عصاه عنده ، وقنع بما وجد فيه من نور أضاء به قلبه . ولا نجد بعده متصوفاً يترجم حياته على نحو ما تقدم فى غير هذا الموضع من تراجم المتفلسفة مثلا ، إنما يعنى المتصوفة كما رأينا فى أول هذا الفصل بوصف سيرتهم الصوفية وقد يذكرون بعض تجاربهم ، وقد تتحول بعض كتبهم إلى تجارب خالصة ، ولكنها جميعاً ليست من الترجمة الشخصية بمعناها التام ، وهى الترجمة التى تعنى بالشخص ووصف حياته وحقائقها بكل ما صادفه فيها من شر وخير وبؤس ونعيم.

ويكاد يكون لكل صوفى حديثه عن تصوفه وبعض تجاربه ، وسنكتفى ممن جاءوا بعد الغزالى بثلاثة هم ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م وابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م والشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ /١٥٦٥ م. أما ابن الفارض ، فقد خلف قصيدة سماها نظم السلوك ، وهى تائيته الكبرى التى يصور فيها معراجه الروحى وما عاناه فى هذا المعراج من شدائد ، حتى وصل إلى مقام الاتحاد بالذات العلية ، ويقص لنا ذلك قصصاً بديعاً ، واستمعْ إليه يصف ما تحمله من مشقة وعناء فى أول عهده بالحب الإلهى ، يقول :

ونفسىَ كانت قبلُ لوامةً مــنّى ... أطعها عصتْ أوأعصكانت مطيعتى
فأوْرَدْتها ما الموتُ أيسرُ بعضِه ... وأتعبتها كيما تكون مريحــتى
وكلفتها ، لا بل كفلتُ قيامها ... بتكليفها حتى كلفتُ بكلفتى
وأذهبت فى تهذيبها كل لــذة ... بإبعادها عن عادها فاطمأنت
وكل مقام عن سلوك قطعته ... عبوديــةُ حققتها بعبــودة

ويخرج من هذا الإجمال فى إيراد نفسه موارد الحلكة ، حتى تسكن إلى الطريق ، يخرج من ذلك إلى بيان أعمال العبادة التى أخذها بها ، وهى النسك والفقه ، والصوم ، وتلاوة القرآن بالليل ، وترتيل الأوراد ، وكثرة الاعتكاف ، والسياحة فى الأرض ، والقناعة والزهد ، ورياضة نفسه على العشق والمحبة ، يقول :

رجعتُ لأعمال العبادة عادةً وأعددتُ أحوال الإرادة عدّتى
وعدتُ بنسكى بعد هتكى وعدت من خلاعة بسطى لانقباض بعفة
وصمتُ نهارى رغبةً فى مثوبة وأحييت ليلى رهبةً من عقوبة
وعمّرْت أوقاتى بوِرْدٍ لـوارد وصمتُ لسَمْتٍ واعتكاف لحرمة
وبنتُ عن الأوطان هجرانَ قاطع مواصلة الإخوانِ واخترتُ عزلتى
وأنفقت من يسر القناعة راضياً من العيش فى الدنيا بأيْسَرِ بُلْغَةِ
وهذبت نفسى بالرياضة ذاهباً إلى كشف ما حُجْبُ العوائد غطت

وعلى هذا النحو نجد ابن الفارض فى تائيته يصور لنا سيرته الشخصية فى التصوف وما أخذ به نفسه فى حياته العملية .

وتكاد تكون كتب ابن عربى كلها تصويراً لسيرته الصوفية ، التى تقوم من جهة على الإيمان بوحدة الوجود كما تقوم على المكاشفات والمشاهدات التى ترفع الحجب عما وراء الغيب .

ومعروف أن ابن عربى أندلسى الأصل وأنه وجد طريقه إلى التصوف على شيوخ من بلده ، ثم ساح فى العالم الإسلامى وبلاد الروم سياحة متصلة ، يتعلم فيها ويعلم ويناقش . وتكثر عنده الرؤى والأحلام ، ومن أوائل أحلامه قوله : إنه « فى ليلة من الليالى تزوج زواجاً صوفيًّا بكل نجوم السماء والحروف » ويقول إن بعض العارفين فسّر له ذلك بأن الله يفتح له العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب . وقد جاور فى مكة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وفى هذه المجاورة تعلق بفتاة تسمى « نظاماً » وأوحت إليه بديوانه « ترجمان الأشواق » وظاهره عشق بهذه الفتاة ، وباطنه معان صوفية يقصد بها العشق الإلهى والفناء فى الذات العلية . ومن

أهم كتبه « فصوص الحِكَم » وهو يعرض فيه إيحاءات يردّها إلى الأنبياء الذين أرسلوا للناس ، وكلها تقطع وتشهد بفكرة وحدة الوجود . وأوسع كتبه وأجمعها لآرائه ومكاشفاته وأحلامه « الفتوحات المكية » وهو يذكر فى فاتحته هذه الرؤيا التى رآها حين بدئه فى الكتاب . يقول بعد التحميد :

« الصلاة على سر العالم ونكتته . ومطلب العالم وبغيته ، السيد الصادق ، المدّلج إلى ربه الطارق ، المخترق به السبع الطرائق "السموات" ليريه حين أسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق ، فيما أبدع من الخلائق ، الذى شاهدته عند إنشائى لهذه الخطبة فى عالم الحقائق ، فى حضرة الجلال ، مكاشفة قلبية ، فى حضرة غيبية . . شاهدته صلى الله عليه وسلم فى ذلك العالم سيداً معصوم المقاصد ، محفوظ المشاهد ، منصوراً للناس مؤيداً وجميع الرسل بين يديه مصطفون ، وأمته التى هى خير أمة أخرجت للناس عليه ماتفون ، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حافّون ، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صافّون ، والصدِّيق عن يمينه الأنفس ، والفاروق عن يساره الأقدس ، والختم عليه السلام بين يديه قد جثا ، يخبره بحديث الأنثى ، وعلىّ صلى الله عليه وسلم يترجم عن الختم بلسانه . وذو النورين مشتمل برداء حيائه مقبل على شانه ، فالتفت السيد الأعلى - والمورد العذب الأحلى ، والنور الأكشف الأجلى ، فرآنى وراء الختم ، لاشتراك بينى وبينه فى الحكم ، فقال له السيد : هذا عديلك ، وابنك وخليلك ، انصب له منبر الطرقاء بين يدىّ . ثم أشار إلىّ : أن قم يا محمد عليه ، فأثنِ على من أرسلنى وعلىّ ، فإن فيك شعرة منى ، لا صبر لها عنى ، هى الساطانة فى ذاتيتك ، فلا ترجع إلىّ إلا بكليتك ، ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء . فإنها ليست من عالم الشقاء . فما كان منى بعد بعثى شىء فى شىء إلا سعِد ، وكان ممن شُكر فى الملأ الأعلى وحُمد . فنصب الختم المنبر فى ذلك المشهد الأخطر ، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر : هذا هو المقام المحمدى الأطهر ، من رقى فيه فقد ورثه ، وأرسله الحق فى العالم حافظاً لحرمة الشريعة

وبعثه . ووهبت فى ذلك الوقت مواهب الحِكَم، حتى كأنى أوتيت جوامع الكلم، فشكرت الله عز وجل وصعدت أعلاه ، وحصلت فى موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ومستواه ، وبُسط لى على الدرجة التى أنا فيها قميص أبيض ، فوقفت عليه ، حتى لا أباشر الموضع الذى باشره صلى الله عليه وسلم بقدميه تنزيهاً له وتشريفاً .. ثم رُددت من ذلك المشهد النورى العلىّ ، إلى العالم السفلىّ ، فجعلت ذلك الحمد المقدس خطبة الكتاب ، وأخذت فى تتميم صوره » . وتفيض كتابات ابن عربى على هذه الشاكلة بتجارب روحية يستمدها حيناً من أحلامه وحيناً من يقظته ، وجميعها تعبر عن انجذاب صوفى عنيف .

وأما الشعرانى فإمام متصوفة مصر فى أوائل العصر العثمانى ، وقد خلف كثيراً من المؤلفات فى التصوف وغيره ، وتمتاز مؤلفاته الصوفية بالبساطة ، وهى تمتلئ بالحديث عن نفسه وشيوخه ومن سبقهم ، يورد ذلك فى سذاجة .

ويهمنا هنا كتابه « لطائف المِنَن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق » فإنه قصّ علينا فى هذا الكتاب سيرة حياته مجملة ، ثم أخذ يسرد مناقبه وأخلاقه وفى العادة يبدأ كل خلق وكل منقبة بقوله : ومما منّ الله علىّ به كذا أو ومما أنعم الله علىّ كذا ، ثم يذكر المنقبة أو الفضيلة .

ونراه فى الباب الأول يتحدث عن نسبه ، ويقول إنه من ذرية محمد بن الحنفية ، وإن جده الأعلى كان سلطاناً لبلاد تلمسان فى المغرب ، وتزهد أحد أبنائه وتبع أبا مدين التلمسانى الإمام الزاهد ، فأرسله فى بعض أتباعه إلى مصر ، واستقر فيها ، وكان حفيده أحمد ينزل من قرية « ساقية أبى شعرة » بإقليم المنوفية . وإليها ينسب الشعرانى واسمه عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الشيخ موسى الذى وفد على مصر كما أسلفنا من المغرب ، ويظهر أن أبناءه كانوا مشايخ طرق من بعده .

وحفظ الشعرانى القرآن الكريم فى قريته وواظب على الصلوات الخمس منذ كان فى الثامنة من عمره ، ويذكر كرامة حدثت له وهو صغير فإنه سبح فى

النيل وأوشك على الغرق ، لولا تمساح امتد تحت رجله ، فوقف عليه ، حتى استراح ، ثم تابع سباحته ، ونجا . وهاجر من الريف إلى القاهرة لقراءة العلوم وحفظ المتون والكتب ، ويحصى ما حفظه من مثل ألفية ابن مالك والتوضيح لابن هشام وجمع الجوامع للسيوطى وجميعها فى النحو ، ومثل تلخيص المفتاح فى البلاغة وكتاب المنهاج للنووى فى الفقه والشاطبية فى القراءات . ويذكر لنا أنه جلس إلى حلقات الشيوخ الذين كانوا يشرحون هذه الكتب والمتون من مثل الشيخ زكريا الأنصارى . ويسرد علينا ثبتاً طويلا بالشروح التى قرأها ، فى مختلف العلوم والفنون ، ويقول إنه كان يأخذ بالأحوط فى دينه وأنه لم يأخذ الرُّخَصَ إلا بالطريق الشرعى ، وإنه ما زال حتى تبحر فى الفقه على جميع المذاهب وألف فيه ، وأعجب الفقهاء المختلفون بتأليفه ، وأذن له الشيخ زكريا الأنصارى أستاذ عصره بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف ، وأخذ يكثر من مطالعته لكتب الشريعة وآلاتها من حديث وأصول ، كما أخذ يكثر من التأليف .

ولما تبحر فى علوم الشريعة قاده هذا التبحر إلى مجاهدة نفسه وسلوك طريق التصوف ، وسار فى الطريق أولا من غير شيخ يهديه ، وكان يطالع كتب المتصوفة من مثل رسالة القشيرى وقوت القلوب لأبى طالب المكى والإحياء للغزالى ، ويقول إن من جملة ما جاهد به نفسه حينئذ أنه كان يجعل حبلا فى سقف خلوته محرَّراً على عنقه إذا جلس ولا يصل إلى الأرض لو اضطجع . فكان يجعله فى عنقه من العشاء إلى الفجر . وظل على ذلك سنين ! يقول :

« ولم يكن لى بحمد الله علاقة دنيوية تعوقنى عن المجاهدة . . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سَدَّاى وُلحْمَتى ، فأغنتنى بحمد الله عن وقوعى فى الذل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لى أننى باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوى منذ بلغت . ولم يزل الحق تعالى يرزقنى من حيث لا أحتسب إلى وقتى هذا . وعرضوا " الولاة " علىّ الألف دينار وأكثر فرددتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكان المباشرون والتجار يأتوننى بالذهب والفضة ، فأنثرهما فى صحن جامع الغمرى !

"الجامع الذى كان يتنسك فيه" فيلتقطهما المجاورون . وتركت أكل لذيذالطعام، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين، وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ! . . وضاقت علىّ الأرض كلها ونفرت من الناس ونفروا منى ، وكنت أقيم فى المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة . . وكنت أطوى الثلاثة الأيام وأكثر ، ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير زيادة . وضعفت بشريتى . وقويت روحانيتى ؛ حتى كنت أصعد بالهمة فى الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى ! فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى وطلبها الصعود إلى عالمها ، فإنه لا يثقل الإنسان فى الأرض إلا كثرة الشهوات . . ولما غلب علىّ طلبُ العزلة عن الناس تنكرت منى جميع قلوب أصحابى ، ونفروا منى . حتى كأنهم لا يعرفونى من ضيق وقتى عن مباسطتهم بالكلام اللغو وعدم المجالسة . . وكنت لا آكل قط طعام فقير ، لا كسب له ، من المتعبدين فى الزوايا ، من غير كبير اشتغال ، خشية أن يكون ممن يأكل بدينه وهو لا يشعر ، وكذلك كنت لا آكل طعام قاض ولو كان من أهل الدين لما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس . . ثم طويت عن طعام جميع الناس فلا آكل إلا عند أوائل درجة الاضطرار ، وذلك حين لا تجد أمعائى شيئاً تشتغل به ، فيلذع بعضها بعضاً . وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أصلى الصبح ، وأذكر " الله " إلى ضحوة النهار ، ثم أصلى الضحى ، وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلى الظهر ، ثم أذكر إلى العصر ومن صلاة العصر إلى المغرب ومن صلاة المغرب إلى العشاء وهكذا . ومكثت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى بربُعْ القرآن بين المغرب والعشاء ، ثم أهجد بباقيه ، فأختمه قبل الفجر ، وربما صليت بالقرآن كله فى ركعة ! . وكان نومى غلبة تخطف رأسى خطفة بعد خطفة وخفقة بعد خفقة ، وكثيراً مايغلب علىّ النوم فأضرب أفخاذى بالسوط . . ولا شك

أن وقوف المحب بين يدى الله عز وجل فى الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عن ربه عزوجل حال تجليه » .

ويذكر الشعرانى بعد وصفه لما أخذ به نفسه من عناء شاق فى أول سلوكه للطريق أنه وجد فى نفسه ارتياحاً للاجتماع بمن سلك هذا الطريق قبله . فاجتمع بخلائق منهم لا تحصى . وأهم من اجتمع بهم ثلاثة على المرصفى ومحمد الشناوى وعلى الخوّاص . ولزم الأخير . وأذاقه كثيراً من حلاوة الطريق وأحواله . ودخل به فى مجاهداته ومتاهاته .

وتتعاقب أبواب الكتاب الذى يقع فى مجلدين ضخمين شارحةً مناقب الشعرانى وفضائله وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على الزهد فى الدنيا وطيباتها والتوكل على الله مع الصلاة . والتسبيح ، وتلاوة القرآن الكريم . ويعرفنا فى أثناء ذلك بزاويته وكثرة المريدين له وما كان يأخذهم به من آداب . ويبسط أمامنا كل سيرته فى صلته بالحكام والعلماء والمتصوفة وعامة المصريين من الفلاحين وغيرهم .

ويمزج الشعرانى فضائله بفضائل المتصوفة من شيوخه ومن سبقهم ، حتى ليتحول الكتاب إلى بحث واسع فى مناقب هذه الطائفة . وقد حمل حملة شعواء على العلوم الفلسفية ، وفضّل علوم التصوف الوهبية على علوم الشريعة الكسبية ! ولا يترك واردة ولا شاردة فى حياته الشخصية إلا ويقصها . حتى معاملته لزوجه وخادمه ، وهو يقص ذلك فى بساطة وسذاجة .

وتتجلى هذه البساطة أيضاً فيما يرويه من مكاشفات المتصوفة ومشاهداتهم ، وما يقصه من ذلك عن نفسه وأنه رُفع عنه الحجاب ! ويقول إن ما يجرى على يديه من كرامات لم يقصده ، وإنما أجراه الله جل وعز وحده . ويعرض طائفة من رؤاه ، ويقول إن الله شرفه برؤياه مرتين وأنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم وبعيسى وبالخضر وبالقطب عليهم السلام مراراً . ويصف كثيراً من

الخوارق التى شاهدها والتى سمع بها عن الصالحين قبله ، ويكثر من خوارق أستاذه على الخوّاص والشيخ المتبولى . وكثير منها يمكن تعليله ، وكثير يستعصى على التعليل . والكتاب بذلك كله ترجمة شخصية وافية لسيرة الشعرانى وسلوكه وكل ما أخذ به نفسه من أفعال وأقوال .

obeikandl.com